الدين

والايمان بالمجردات

يظن كثير من الناس أنّ الإيمان بوجود عالم مجرّد عن المادّة أصلٌ من أصول الدين ، بل يغالي بعضهم في الإيمان بوجود هذا العالم ، ويجعله حدّاً فاصلاً بين الايمان والكفر ، ويرى أن الإيمان بوجود الله يتوقف على الايمان بوجود العالم المجرّد عن المادّة. فمن ينكر وجود هذا العالم يكون كافراً عنده ، ومن يرى أنّ الإدراك عملٌ من أعمال المخ يكون كافراً أيضاً ، وهكذا من يعتقد نظير هذا في الملائكة ونحوهم من العوالم التي لا ندركها بحواسنا .

ولا شك في أنّ هذا ظنٌّ خاطئ ، وقد وقع فيه بعض علماء عصرنا ، لأنه لم يدرس علم الكلام في الأديان درساً صحيحاً ، ولم يكلف نفسه عناء البحث في كتبه القديمة ، لأنه لم يألف أسلوب البحث فيها ، وقد يجد في التواء عباراتها ما يصرفه عنها ، فلا يجد إلاّ أن يأخذ مسائل الدين من كتب الفلسفة القديمة والحديثة ، وهذه الفلسفة تقوم على الايمان بالمجرّدات ، فيظن أن الدين مثل الفلسفة يقوم على الإيمان بالمجردات أيضاً ، ويتوهم أن من ينكر وجودها يلزمه أن ينكر وجود الله أيضاً ، لأنه لا ينكرها إلاّ لأنه لا يدركها بحسه ، والله تعالى لا يُدرَك بالحس أيضاً ، فيلزمه إنكار وجوده مثلها

والحقيقة أن علماء الكلام ينكرون الإيمان بالمجردات ، بل يكفرون من يؤمن بها على الأساس الذي يقوم عليه في الفلسفة اليونانية ، لأنّ الايمان بها في هذه الفلسفة يقوم على أساس أن الأشياء تصدر عن الله تعالى بطريق العلّيّة لا بطريق الاختيار ، وقد اتفقت الأديان السماوية على أن الأشياء تصدر عن الله تعالى بطريق الاختيار لا بطريق العلّيّة ، وعلى هذا لا يصح أن يُنظر الى الإيمان بالمجردات كما ينظر إليها بعض علماء عصرنا ، بل يجب أن ينظر إليها بعكس نظرهم ، إذا أخذنا برأي علماء الكلام فيها ، أو نقتصد في أمر

الايمان بها ، فلا يجعل حدًّا فاصلاً بين الايمان والكفر ، بل يبعد به عن العقيدة الدينية ، ويجعل مسألة علمية لا يتعلق بها إيمانٌ ولا كفر ، ويكون شأنها في هذا كشأن سائر المسائل العلمية .

ولقد كان المسلمون قبل نقل الفلسفة الى اللغة العربية لا يعرفون شيئاً عن هذه المجرَّدات ولا يهمهم أمر البحث فيها ، لأنَّ القرآن الكريم فيما تناوله من أمر الرُّوح قد سنَّ لهم سنناً قويماً ، فلم يجعل البحث في حقيقتها من أمر الدين ، بل جعله من أمر العلم الذي يعتمد على العقل ، ويوصل الانسان الى معرفة حقائق الأشياء بقدر طاقته البشرية ، وهذا هو ما تشير إليه الآية — ٨٨ — من سورة الاسراء (ويسألونك عن الرُّوح قُل الرُّوح من أمر ربِّي وما أوتيتُم من العلم إلاَّ قليلاً)

فلما نقلت الفلسفة الى اللغة العربية عرفوا منها هذه المجرَّدات من العقول والنفوس وما إليها ، وقد جرَّت طريقة إثباتها في هذه الفلسفة خلافاً كبيراً بين المسلمين ، فآمن بها فلاسفة الإسلام من الكندي والفارابي وابن سينا وغيرهم ، وأنكرها أكثر علماء الكلام ولم يؤمن بها إلاَّ القليل منهم ، ولكن من أثبتها من علماء الكلام لا يرى أنها تصدر عن الله بطريق العلِّية كما يرى الفلاسفة .

وهذه هي طريقة الفلاسفة في إثبات المجرَّدات الأولى التي صدرت عن الله تعالى ، وهي العقول :

قالوا : إنَّ الله تعالى واحدٌ من جميع الجهات فلا يصدر عنه إلاَّ واحد ، والواحد الذي يصدر عنه لا يجوز أن يكون جسماً ، لأنَّ الجسم مركَّب ، والتركيب ينافي الوحدة ، ولا يجوز أيضاً أن يكون هيولي أو صورة ، لأنه يلزم وجود كل منهما عند وجود الأخرى ، فلو كان أول المخلوقات إحداهما لزم أن تكون فاعلة للأخرى ، وإلاَّ لزم وجود إحداهما دون الأخرى ، وكون إحداهما فاعلة للأخرى باطل . أما المادَّة فلأن شأنها القبول دون الفعل ، وأما الصورة فلأنها إنما تكون فاعلة بمشاركة المادَّة ، فيلزم تقدُّم المادَّة على نفسها ، ولا يجوز أيضاً أن يكون عرَضاً ، لأن العرَض يفتقر الى محل يقوم به ، ومحله إمَّا أن يكون معلولاً لعلَّته فيلزم صدور الكثير عنها ، وإما أن يكون معلولاً لغيرها فيلزم تقدُّم

الشيء على نفسه ، ولا يجوز أيضاً أن يكون نفساً ، لأنه يجب أن يستقل بإيجاد ما بعده والنفس لا تستقل بإيجاد ما بعدها ، لأن فعلها مشروط بالبدن ، فلا يمكن وجودها دونه ، وهو إما أن يكون معلولاً لعلتها ، فيلزم صدور الكثير عنها ، وإما أن يكون معلولاً لها ، فيلزم تقدم الشيء على نفسه . وبهذا كله لا يصح أن يكون أول المخلوقات جسماً ولا هيولى ولا صورة ولا عرضاً ولا نفساً ، بل يجب أن يكون جوهراً مجرداً عن المادة في ذاته وفعله ، أي عقلاً .

وقد صدر عندهم يقتضي هذا عقل واحد عن الله تعالى ، وهذا العقل يصدر عنه باعتبار وجوده عقل ثانٍ ، وباعتبار إمكانه جسم ، وهو جسم الفلك المحيط ، وباعتبار وجوبه بغيره وهو الله تعالى نفس ، وهي نفس هذا الفلك ، وهكذا يصدر عن العقل الثاني عقل ثالث ونفس وفلك ، الى أن تنتهي العقول الى عشرة ، والعقل العاشر هو الذي يدبر عالم العناصر ، وهو العالم الأرضي ، وما يحيط به من ماء وهواء ونار . وقد ذهبوا الى أن هذه العقول هي التي تسمى ملائكة في لسان الشرع ، فالملائكة عندهم هي العقول المجردة والنفوس الفلكية ، كما أن الجن عندهم أرواح مجردة أيضاً .

* * *

وعلماء الكلام لا يسلمون لهؤلاء الفلاسفة تلك القاعدة — قاعدة أن الواحد من جميع الجهات لا يصدر عنه إلاَّ واحد — لأن هذا مبني على أن الأشياء تصدر عن الله تعالى بطريق العلية ، وعلماء الكلام ينكرون هذا على الفلاسفة ، ويذهبون الى أن الأشياء تصدر عن الله بطريق الاختيار ، فلا مانع من أن يصدر عنه الكثير بهذا الطريق ، وإذا بطلت تلك القاعدة بطل ما ترتب عليها من القول بالجواهر المجردة عن المادة ، أو لا يلزم على الأقل القول بوجودها ، ولهذا اختلف علماء الكلام في القول به ، فمنهم من ينكر وجودها ويرى أنها لو كانت موجودة لشاركت الله تعالى في جنس الوجود المجرد عن المادة ، فتحتاج حقيقته الى فصل يميزها عنها ، وهذا يستلزم التركيب في حقيقته تعالى ، ومنهم من لا ينكر وجودها ، لأنها لا تشارك الله تعالى في جنس الوجود ، لأن وجودها ممكن لذاته واجب

بغيره ، ووجود الله تعالى واجب بذاته ، وعلى هذا لا يستلزم القول بها التركيب في ذات الله تعالى .

وقد ذهب علماء الكلام الى أن الملائكة أجسام لطيفة قادرة على أن تتشكل بأشكال مختلفة شأنهم الخير والطاعة وكمال العلم والقدرة على الأعمال الشاقة ، والى أن مسكنهم السماوات ، وانهم وصل الله الى الأنبياء ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

وكذلك ذهبوا الى أن الجن أجسام لطيفة قادرة على أن تتشكل بأشكال مختلفة شأنهم الطاعة والمعصية كالبشر ، ومنهم فريق جبل على الشر والاغواء ، وهم الشياطين .

فكل من الملائكة والجن أجسام مادية لطيفة عند علماء الكلام ، وهي في هذا مثل سائر الأجسام المادية اللطيفة كالهواء والنار ، وليست جواهر مجردة عن المادة كما يرى الفلاسفة

وكذلك النفس الانسانية عند علماء الكلام ، فهم لا يرون أنها جوهر مجرد عن المادة كما يرى الفلاسفة ، بل يرون أنها جسم لطيف حي لذاته سار في البدن سريان الماء في الورد والنار في الفحم لا يتبدل ولا يتحلل ، فاذا بقي في البدن بقيت فيه الحياة ، وبهذا تكون حياة البدن بالعرض لا بالذات ، وإذا انتقل عنه الى عالم الأرواح أدركه الموت ، ومن علماء الكلام من يرى أن النفس الانسانية هي الأجزاء الأصلية التي لا تقوم الحياة بأقل منها وتبقى من أول العمر الى آخره ، فلا يرى هؤلاء أن النفس جسم لطيف كما يرى الأولون بل يرونها الأجزاء الأصلية لهذا الجسم الكثيف .

* * *

وقد استدل علماء الكلام على أن النفس جسم لا جوهر مجرد عن المادة بما يأتي من الأدلة :

(١) ان المدرك للكليات والجزئيات هو النفس ، لأنا نحكم بالكلي على الجزئي فنقول — زيد إنسان — والحاكم بين الشيئين لا بد أن يتصورهما ، ومدرك الجزئيات هو الجسم لا غير ، لأنا نعلم بالضرورة أنا إذا لمسنا النار كان المدرك لحرارتها هو العضو اللامس ، ولأن غير الانسان من الحيوانات العجم يدرك الجزئيات ، مع الاتفاق على عدم إثبات النفوس المجردة لها ، وإذا كان مدرك الجزئيات هو الجسم ، وكانت النفس هي المدركة

الجزئيات والكليات بسبب حكمها بأنها كانت جسماً لا جوهراً مجرداً عن المادة .

(٢) ان كل واحد منا يعلم قطعاً أن ما يشير إليه بأنا وهو معنى النفس يتصف بأوصاف الجسم من القيام والقعود والاكل والشرب ونحو ذلك من خواص الاجسام ، وما يتصف بخواص الاجسام يكون جسماً .

(٣) أن اصحة الجوهر المجرد عن المادة إلى الابدان على السواء ، فيجوز أن ينتقل من بدن الى آخر ، فلا يصح أن يقطع بأن زيد الموجود الآن هو الذي كان موجوداً بالأمس ، مع أنا نقطع بأنه هو بعينه ، فتكون نفسه جسمه لا جوهراً مجرداً بخلافه

(٤) ظواهر النصوص الواردة في القرآن والحديث ، لانها تدل على أنها تبقى بعد خراب البدن ، وتتصف بما هو من خواص الاجسام ، كالدخول في الدار ونحو ذلك

وإذا كان هذا هو شأن الايمان بالمجردات في الدين ، لم يكن من الانصاف في شيء أن نجاوز شأنها فيه ، ولا أن نجعل الايمان بها أصلاً من أصوله ، لان هذا يضر الدين ولا يفيده ، ويحمل كثيراً من الفلاسفة الذين لا يؤمنون بالمجردات على إنكاره ، ومن مصلحته أن يقبل هؤلاء الفلاسفة في حظيرته ، كما يقبل فيها الفلاسفة الذين يؤمنون بالمجردات . لتكون دائرته العلمية من السعة بحيث تشمل الفريقين ، وحتى لا يتأثر بالخلاف المحتدم بينهما الآن ، ولا يكون في انتصار أحدهما على الآخر خطر عليه ، فنحن الآن لا ندري لمن يكون النصر منهما ، وليس من مصلحة الدين أن نجعل أمره مرهوناً بهذه النتيجة المجهولة ، لانا نعرضه بهذا للقلقلة ، وندخله في دائرة الشك الذي يلابس هذه المعركة العلمية

فلنقف في أمر الروح وما إليها من المجردات عند حدها في القرآن الكريم ، لانه هو الحد الذي يجب أن يكون لها في الدين ، فلا يهمه أن تكون جوهراً مجرداً أو غير مجرد ، وإنما يهمه أن تكون مكلفة في الدنيا ، وأن يكون لها معاد وحساب في الآخرة كائنة ما كانت حقيقتها ، لان معرفة حقائق الاشياء ليست من وظيفة الدين ، وإنما هي من وظيفة الفلسفة

عبد المتعال الصعيدي
الاستاذ بكلية اللغة العربية في الجامعة الازهرية